

الممارسات الثقافية والاجتماعية بين الثقافة الشعبية والثقافة العاملة

Cultural and social practices between popular culture and scholarly culture

عميرات محمد أمين* ، المركز الوطني للحوث في عصور ما قبل التاريخ علم الانسان والتاريخ،
aminesocio@yahoo.fr

جمال الدين بابا، المركز الوطني للحوث في عصور ما قبل التاريخ علم الانسان والتاريخ،
babadjamel94@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/06/15

تاريخ القبول: 2022/04/05

تاريخ الإرسال: 2022/02/02

ملخص:

يقوم أصل الثقافة على تجارب وخبرات الإنسان المتراكمة في الحقل كافة، فلكلّ اجتماع أو مجموعة بشرية مواصفات خاصّة بها، سواء على مستوى اللسان أو الدّين أو طريقة الدفن، تجعله الرابط بين أفراد هذه الجماعة، لكن توجّه الثقافة يتخذ في الحياة العملية إمّا منحى الثقافة المعروفة بالشعبية وإما ثقافة أهل العلم والعلماء، فتسمى الثقافة العاملة. فالثقافة الشعبية هي ثقافة عامة الناس، المنتشرة على جميع المستويات الاجتماعية والتي تطال حقول الحياة اليومية كافة من لباس وأكل وسلوكيات تجسّد لرموز ذات مرجعيات دينية كانت أم تاريخية، أمّا الثقافة العاملة فهي تلك الثقافة التي انطلقت في الأساس من عناصر الثقافة الشعبية لتتخصّص فيما بعد، وتجعل من حقلها حقلًا خاصًا بالعلماء أو النخبة المتعلّمة، المبدعة لإثبات هذا الحضور الروحي والمادي، والاتّجاه نحو رؤية جديدة تكون نقطة انطلاق لتأكيد الهوية الثقافية مع المساهمة في التنمية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، حتى تكوّن لنفسها تراثًا تتوارثه الأجيال عبر علاقة الحاضر بالماضي لبناء المستقبل.

الكلمات المفتاحية: ممارسات، ثقافة شعبية، هوية، تراث، مجتمع.

* المؤلف المرسل

Abstract:

The origin of culture is based on human experiences and accumulated experiences in all fields, each meeting or human group has its own specifications, whether at the level of tongue, religion or burial method, making it the link between members of this group, but the orientation of culture in practical life takes either the direction of culture known as popular or the culture of scientists and scholars, so it is called scholarly culture.

In fact, popular culture is the culture of the general public, spread at all social levels and affecting all fields of daily life such as clothing, food and behaviors that reflect symbols with religious or historical references. As for the scholarly culture, it is that culture that was launched primarily from the elements of popular culture to specialize later, and to make its field a special field for scholars educated or creative elite, to prove this spiritual and material presence, and the trend towards a new vision that will be a starting point for affirming cultural identity while contributing to cultural, social and economic development, so that it has a heritage that generations pass on through the present's relationship with the past to build the future.

Keywords: practices, popular culture, identity, heritage, society.

مقدمة:

الثقافة تُكسب الإنسان تميّزه وهويته، وتحدد نسبه إلى جماعة بشرية معينة لأنها خلاصة ما تتحصل عليه الجماعة من فكر وأداب وعلم وفن و ثمرة ابداعاتها في هذه الحقول، وصورة ارتساماتها الجغرافية وتشمل الثقافة مجموعة المعارف والقيم، وطرائق التفكير، والإبداع الجمالي والمعرفي والتقني، وسبل السلوك والتصرف والتعبير، فهي كل النشاطات العقلية العليا، والإنتاج الذهني العالي المستوى، والوسائل التي تعتمد عليها هذه الثقافة متعددة، ابتداء من المدرسة كمؤسسة هامة في عملية التثقيف، مروراً بالكتاب واللوحة التشكيلية، والقطعة الموسيقية، والسينما، والتلفزيون والمسرح ... إلخ.

1. في ماهية الثقافة وخصائصها

1.1. لغة:

الثقافة في اللغة: ثقّف ثقافا وثقافة، صار حاذقا خفيفا فطنا، وثقّفه ثقيفا سّواه، وهي تعني تثقيف الرمح، أي تسويته وتقويمه. وهي أيضا مصدر تُثَقّف بالضم ككرم (المرتضى ، 1994 ، صفحة 51)، وتستعمل في اللغة لعدة معان منها الحذق والفتنة، وقوة الإدراك، نقول تُثَقّف الرجل. والتهديب والتأديب، نقول تُثَقّف المعلم الطالب. وتقويم المعوج من الأشياء نقول تُثَقّف الصانع الرمح وسرعة أخذ العلم وفهمه، نقول تُثَقّف الطالب العلم. وإدراك الشيء والحصول عليه.. وتدل مفردة الثقافة أيضا على تثقيف الرمح: بمعنى تشذيبه، وتطويره، وثقّف الشيء: أدركه، وثاقفه بالسلاح: لاعبه بالسلاح (ابن منظور، صفحة 492)

2.1. اصطلاحا:

إن ما يميّز الإنسان عن باقي الكائنات الأخرى امتلاكه لثقافة خاصّة، والثقافة من المفاهيم التي اختلف فيها وتباينت الآراء حولها، فمفهوم الثقافة في الاصطلاح أوسع من معناها اللغوي، ومن الصعوبة بمكان أن يجد لها الإنسان تعريفا جامعاً مانعاً، لاختلاف مجالات الدراسة أو لاختلاف اهتماماتها سواء كانت تاريخية، اجتماعية، نفسية أو فلسفية أو أنثروبولوجية، وقد ذكر صالح ذياب هندي في كتابه دراسات في الثقافة الإسلامية أسباب الاختلاف في تعريف الثقافة وهي: اختلاف اهتمام وتخصص صاحب التعريف، واختلاف المدارس والاتجاهات الثقافية في العالم حول تعريف الثقافة (هندي، 1985، صفحة 14)، أما في الاستعمال العام الحاضر فيطلق لقب المثقّف على المتمكّن من بعض المجالات المعرفية: كالفن والموسيقى والأدب، وكذلك من يتمتع بلباقة ولباقة في تعاملات (بوفلجة، 2005، صفحة 15).

أما علم الأنثروبولوجيا فيعتبر الفرد مثقفاً بمجرد كونه إنسان ينتمي إلى مجتمع، يرى فيها (الثقافة) ذلك الميراث الاجتماعي الذي يحصل عليه الفرد من مجموعته.

تم اشتقاق كلمة ثقافة «Culture» في الغرب من الكلمة اللاتينية «Cultura» وقد حافظت مجموعة من اللغات الأوروبية حسب تومسون في كتابه الإيديولوجيا والثقافة الحديثة (Thompson) (1990, p. 124) على جزء من المعنى الأصلي للكلمة في اللغة اللاتينية، ثقافة بمعنى حراثة أو زراعة «Cultivation» أو تطوير الإنتاج وترقيته وتحسينه. ومنذ القرن 16، تطور مفهوم الكلمة من «حراثة الأرض» إلى «حراثة الذهن»، أي تطوير المهارات الذهنية. وفي القرن 19 استعملت كلمة ثقافة مرادفة لكلمة حضارة «Civilisation»، وإبان عصر الأنوار في فرنسا وبريطانيا، وظفت كلمة حضارة للدلالة على مرحلة راقية من تطور الثقافة، وهكذا ظهر تصور مفاده أن هناك شعوبا مثقفة ومتحضرة وشعوبا بدون

ثقافة أو حضارة، وهي عبارة عن تجمعات بشرية بدائية وهمجية، وظل هذا المفهوم سائدا بالرغم من ظهور تصور كلاسيكي يتحدث عن الثقافة بصيغة الجمع، بمعنى أن هناك ثقافات، لكن ظلّ التصور الكلاسيكي يحمل في طياته نفحة الحضارة. وحسب هذا المنظور، يتم تعريف الثقافة على الشكل التالي: «الثقافة هي عملية تطوير مهارات ذهنية وفكرية بواسطة الاطلاع على أبحاث أكاديمية وفنون، وهي مرتبطة بالمظاهر المتقدمة للعصر الحديث» (Thompson, 1990, p. 120) فالثقافة من هذا المنظور إذن هي المعرفة المتعلقة بالفنون والآداب، وكل ما يرتبط بالمهارات الفنية، وهذا التصور في نظرنا قريب من مفهوم الثقافة العالمية أو الراقية.

بعد نشاط الحركة الإمبريالية في أوروبا إبان القرن 19، ظهر تصور جديد يمكن تسميته حسب تومسون دائما بالتصور الوصفي للثقافة، وترعرع هذا التصور في أكناف المد الأنثروبولوجي، حيث سافر عدد من الباحثين الأنثروبولوجيين إلى المستعمرات البريطانية والفرنسية، وبدأت حركة مهمة من الكتابة الاثنوغرافية حول هذه الثقافات؛ و نسوق إليكم تعريفا للثقافة من هذا المنظور لتاييلور السالف الذكر في كتابه الثقافة البدائية، يقول تاييلور: «تعتبر الثقافة أو الحضارة بمعناها الاثنوغرافي، مجموعة من المعارف والمعتقدات والفنون و السلوكيات الأخلاقية والقوانين والتقاليد وكل المهارات والعوائد التي اكتسبها الإنسان كفرد داخل المجتمع» (Etienne, Bloess, Noreck, & Roux, 1997, p. 120). هكذا، أصبحت الثقافة ذات تعريف شمولي يتضمن رموز الحياة اليومية لكافة أفراد المجتمع وممارساتها، ولم يعد يقتصر على الفنون والآداب والسمات الراقية لمجموعة بشرية معينة. وقد انخرطت كل المجتمعات البشرية، والطبقات الاجتماعية، والفئات الإثنية، والأقليات على اختلاف أجناسها وأعرافها وميولاتها الجنسية في هذا التعريف، باعتبارها بنيات مثقفة، أي تعيش في أحضان ما يسمى بالثقافة الرئيسية أو الثقافة العضوية للشعب. وظل البحث الأنثروبولوجي مستمرا على هذا المنوال حتى العقود الأخيرة من القرن العشرين؛ حيث ظهر تصور جديد للثقافة.

وأحد مؤسسي هذا التصور هو كليفورد كيرتز (Clifford Geertz) في كتابه تأويل الثقافات، حيث عرف الثقافة على الشكل التالي: «إذا اعتقدنا مع ماكس فيبر أن الإنسان كائن حيواني يعيش سجين نسيج من المعاني التي عمل على خلقها، فسنعرف الثقافة بأنها ذلك النسيج، وأن دراستها ليست علما تجريبيا يبحث عن قوانين وقواعد علمية موضوعية، ولكنها عملية تأويلية تبحث في المعاني والرموز» (كيرتز، 2009، صفحة 82). لقد أدخل هذا التصور إبدالا جديدا إلى ميدان الدراسة الثقافية، فما هو هذا الإبدال؟ عرف (كيرتز) الثقافة بأنها نسيج من الرموز التي خلقها الإنسان لكي يتواصل مع ذاته والآخر، ويمكن تسمية هذا التصور بالتصور الرمزي للثقافة. ولقد أدرج الآن هذا التصور كتصور أساسي في علم الاجتماع والدراسات الثقافية؛ حيث أصبح دارس الثقافة عبارة عن ناقد أدبي يقوم بتأويل النص الثقافي

تأويلا من الدرجة الثانية، لأن التأويل من الدرجة الأولى هو للفاعل الاجتماعي، والنص هنا يشمل أي فعل ثقافي. وينبغي وضع هذا التصور في سياقه التاريخي، حيث يتبين من خلال التعريف أن اللغة مكون أساسي في بناء ثقافة الشعوب. هذا التعريف يرتكز بالذات على أدبيات البنيوية التي اعتبرت اللغة محورا أساسيا في تشكيل الواقع وتحديد نظرة الإنسان إليه (غيرتر، 2009، صفحة 49).

كما يمكن أن نعرف الثقافة انطلاقا من التعريف الذي قدمه محمد عابد الجابري في كتابه المسألة الثقافية في الوطن العربي، حيث أكد على أن الثقافة "مركب متجانس من الذكريات و التصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات"، (الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، 1999، صفحة 18)، ويتسم هذا المفهوم الذي قدمه الجابري بطابعه الروحي الذي يجعل من الثقافة ضمن بنية (المخيال الجماعي للأفراد). وعلى ضوء نظرية كيرتز، يعرف البدوي أحمد زكي في معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية الثقافة كما يلي: «الثقافة هي البيئة التي خلقها الإنسان، بما فيها المنتجات المادية وغير المادية التي تنتقل من جيل إلى آخر، فهي بذلك تتضمن الأنماط الظاهرة والباطنة للسلوك المكتسب عن طريق الرموز والذي يتكون في مجتمع معين، من علوم ومعتقدات و فنون وقيم وقوانين وعادات وغير ذلك» (البدوي ، 1982 ، صفحة 92). إذن هذا هو التصور الذي لا زال سائدا حتى الآن، ثقافة شاملة بما فيها من المنتجات الباطنة والظاهرة للسلوك البشري المكتسب. فالثقافة منظومة متكاملة تضم النتائج التراكمي لمجموع موجات الإبداع والابتكار التي تتناقلها أجيال الشعب الواحد. وتشمل بذلك كل مجالات الإبداع في الفنون والآداب والعقائد والاقتصاد والعلاقات الإنسانية، وترسم الهوية المادية والروحية للأمة لتحديد خصائصها وقيمها وصورتها الحضارية، وتطلعها المستقبلية ومكانتها بين بقية الأمم، فهي إرث تاريخي يحمل معه الطابع الخاص بكل أمة، غير قابل إلى شكل من أشكال العولمة، إذ أن محاولة عولمة أي ثقافة تعني في الحقيقة السعي إلى بسط هيمنتها على الثقافات الأخرى، إما بطمسها أو إلغائها في عدد من المجالات (الحصري، 1985 ، صفحة 133). إن الثقافة التي تكتسي أهمية قصوى بوصفها عنصرا متميزا تتجلى من خلال شكلين رئيسيين:

أ- الشكل التقليدي : وهو ما يصطلح عليه بالثقافة الشعبية الضاربة في عمق طبقات الشعب، وتتجسد عبر عقول هذه الطبقات، وما تفرزه من إبداعات موسيقية وفخرية، ورسومات ونحوت، وشتى أشكال الاستجابات الشعبية لبيئتها

ب- ثقافة الجمهور : وهي شكل آخر من الثقافة المشتركة وهي التي تستخدم وسائل الاعلام الجماهيري كنوع من التربية، ويعبر عنها في التظاهرات الثقافية الجماعية والمهرجانات، والاستعراضات والحفلات الموسيقية والرياضية (بيومي ، 2002 ، صفحة 174).

ويذهب بعض العلماء إلى أن الثقافة تتكون من:

أ. الأفكار: وهي كل العقائد والاتجاهات الموجودة في عقول الأفراد الموروثة منها اجتماعيا، والمبتكرة في الأفراد أنفسهم

ب. الأشياء: وهي كل شيء مادي محسوس يعطيه الإنسان معنى محددا وغالبا من يكوف هذا الشيء ومن صنع الإنسان أو يبذل الإنسان جهدا في إيجاده وتحويره أو تحويله عما كان عليه هذا الشيء الطبيعية

ج. العلاقات: وهي خطوط الاتصال والتفاعل بين الأفراد بعضهم ببعض أو بينهم وبين الأشياء والعالم المادي الخارجي بصفة عامة (بن نعمان ، 1996 ، صفحة 26).

2. الممارسات واجهة للتراث :

إن أهمية التراث الثقافي الثري والمتنوع، ودوره في دفع عجلة التنمية على مختلف المستويات تهدف إلى صيانة التراث الثقافي بشتى أشكاله وصوره، كما تتضمن أيضا مبادرات لتعزيز التفاعل المثمر بين الثقافات، وتأسيس القيم الثقافية، واحترام التنوع الثقافي، كما يتجلى في مختلف أشكال الإبداع الفكري والفني، بالإضافة إلى التأكيد على دور الثقافة في التنمية على اعتبار أن الإنسان هو محور التنمية وصانها، ومن ثم ينبغي الاهتمام بتنمية إبداعه، وملكاته، وقدراته؛ ذلك أن هذا هو اساس النهوض به وتأكيد إنسانيته، وتعزيزها، وهو ما يعني أن توجه في ضوء الطموحات، وأن تحقق الأمانى الخاصة لكل شعب، كما أن هذا يعني أيضاً أن كل شعب أو مجتمع يختار نموذج التنمية الخاص به والمتوائم مع قيمه الثقافية وأنماط معيشته، فالتنمية الوطنية لا يمكن أن تتحقق ما لم تكن التنمية أصيلة تحترم الذات الثقافية لكل بلد، ولكل مجتمع، وتعمل على صونها وترسيخها.

ويقضي هذا ضرورة العمل على توجيه جهود التنمية انطلاقاً من واقع المجتمع ومشكلاته اليومية وأفكاره وعاداته، وتقاليده ومعتقداته، وفي ضوء هذا نجد أنه لا سبيل إلى الفصل بين الذاتية أو الهوية الثقافية والتنوع الثقافي، وأنه ينبغي النظر إلى جوانب الثقافة المتنوعة باعتبارها وحدة متكاملة وعملية متصلة الحلقات (مرسى، 2013، صفحة 12). إن لكل ثقافة قيمة ومكانة ينبغي احترامها، والحفاظ عليها، وأن لكل شعب حق –وعليه واجب- تطوير ثقافته، وأن كل الحضارات-بتنوعها وتباينها، وبالتأثير المتبادل الذي يمارسه بعضها على البعض الآخر- تشكل جزءاً من تراث الإنسانية المشترك. وقد تطورت ممارسات الدول وتعددت في هذا المجال، وزاد الاهتمام بالتعبيرات الثقافية الأصيلة، والمأثورات

الشعبية، وبصيانة وحماية الآثار التي تعدّ تعبيراً عن التراث العالمي للإنسانية، وكذا التراث الثقافي اللامادي. كما أن السبيل الوحيد للنهوض بالثقافة لن يكون ممكناً إلا بالاهتمام بوضع سياسات ثقافية تعمل على إحداث تنمية ثقافية شاملة تقوم أساساً على احترام التراث الثقافي للإنسانية عامة، واحترام الذاتيات (الهويات) الثقافية خاصة، وأنه لا يمكن الفصل بين الذاتية (الهوية) الثقافية والتنوع الثقافي؛ إذ إن الذاتية (الهوية) الثقافية هي المجال الذي تحيا فيه الثقافة كحقيقة ذاتية، وتعي فيها الجماعة نفسها بوصفها ذاتاً، وهو ما يعني النظر إلى الثقافة على أنها وحدة متكاملة مستمرة عبر الزمن.

3. في مفهوم الثقافة الشعبية

نشير هنا إلى أن مفهوم الثقافة الشعبية قد عانى، في بداياته، من بعض الغموض الدلالي نظراً لتعدّد معانيه. فالباحثون الذين لجأوا إلى هذه العبارة لا يعطون التعريف نفسه لكلّمي "ثقافة"، و"شعبية"، ممّا يجعل النقاش أمراً صعباً بينهم.

إن مصطلح الثقافة الشعبية هو أصلاً مكوّن من شقّين: "الثقافة" و"الشعبية" كتعيين لمجال عمل وتخصّص هذه الثقافة، وقد يحدث التباس بين هذا المصطلح والمصطلحات الأخرى التي تحمل نفس المفهوم، وتستعمل للدلالة عن ذات المظاهر والممارسات مثل: الفلكلور، التراث الشعبي، التراث اللامادي، التراث المادي، (الأدب الشعبي...)، وتكتسب الثقافة الشعبية صفتها "الشعبية" نتيجة لأن العامة هم الذين ينتجوها ويستهلكوها، « فإنجازات الثقافة الشعبية هي إبداع "جمعي" ينتهي إلى جموع هؤلاء العامة، ولا ينسب إلى أفراد بذواتهم، و للثقافة الشعبية وسائلها وآلياتها التي تتضمن عدم سيرورة أي منتج ثقافي ما لم يتقبله عامة الناس، فبالتالي فهم لا يدمجون في ثقافتهم إلا ما توافق مع متطلباتهم، ورؤيتهم المتجددة مع تجدد أجيالهم وتجدد ظروف معيشتهم" (الحواس، 2002، صفحة 73).

فالثقافة الشعبية هي المنتج الثقافي الذي تنتجه وتصنعه العامة، ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال النظر إليه بعين الاستخفاف والتشكيك؛ لأنها معرفة قائمة بذاتها، لها أسسها وقواعدها، وكانت تشكل في مرحلة ما من تاريخ المجتمع أو الجماعة الإنسانية قمة التفكير البشري لحاجة ملحة... ففي "الثقافة" العادية لأناس عاديين، أي أنها ثقافة تتشكل تبعاً للواقع اليومي، ومن خلال النشاطات العادية المتجددة كل يوم" (كوش، 2002، صفحة 451). كما أن إعطاء تعريف دقيق يحظى بالإجماع لمفهوم الثقافة الشعبية، أصبح أمراً غير يسير، نظراً لكثرة تداوله بين المثقفين والمهتمين، والباحثين في العلوم الإنسانية، ورجال السياسة، وعامة الناس... ونظراً للتداخل الذي يعرفه هذا المفهوم مع مفاهيم أخرى، كالثقافة التقليدية، وثقافة الأوساط الشعبية والفلكلور والتراث والثقافات الجهوية (الأمازيغية، الموريسكية، القروية العربية...):

وهي مفاهيم يتم تداولها بين الباحثين دون إعطائها تعاريف دقيقة تمكّن من التمييز بين كل مجال من هذه المجالات، من جهة، وترتبط أكثر بالتطور الذي عرفه مفهوم الثقافة من لدن الباحثين السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين من جهة ثانية. ويمكن إجمال صعوبات تعريف الثقافة الشعبية من منظور جديد فيما يلي:

أن التصور السائد حالياً يتعامل مع "الثقافة الشعبية" باعتبارها تنحصر في الآداب والفنون التي تنتسب إلى أعراق معينة (أمثال، أساطير، أغاني شعبية غير عصرية، وفلكلور وقصص الأنبياء، وقصص قديمة، وسير وأخبار أبطال العرب والمسلمين القدامى،...). ولا يشمل هذا الفهم للثقافة الشعبية باقي مكونات الثقافة الأخرى من قيم ونماذج سلوك ومعايير وأشكال تعبير وغيرها، والشيء نفسه ينطبق على التعامل مع الثقافة التقليدية التي لم تكن ثقافة تقليدية في فترات زمنية سالفة بل كانت هي الثقافة السائدة والفاعلة في عصورها، بمعنى أن التركيز يتم على المنتوج الشفهي المتوارث ولا يركز على دورها في الحياة اليومية، وبالتالي يتم اختزال نسبة هامة من هاته الثقافة.

* لا يتم تحديد المقصود بمفهوم الشعبي؛ فهل يقصد به القديم أم المتداول من طرف الأوساط الشعبية أم المرغوب فيه من طرف مختلف شرائح المجتمع أو من طرف فئات عريضة من هذه الشرائح؟ ذلك أن الرصيد الثقافي الذي يتم اعتباره شعبياً لم يعد في مجمله كذلك إذا اعتبرنا أن معيار شعبية شيء ما هو مدى تمثله أو تداوله من طرف أوسع الفئات الشعبية، في الوقت الراهن؛ وبما أننا أصبحنا نجد أنفسنا أمام تراث يجله جلّ الشباب والمراهقين والأطفال، فإنه يحق لنا أن نعيد النظر في مفهوم الشعبي وأن نميز بين تراث كان شعبياً في فترات سابقة، وبين وضعية هذا التراث الآن، حيث أصبح مجهولاً لكونه لم يعد متداولاً. فيتم التعامل مع الثقافة الشعبية باعتبارها جامدة ولا تتغير، في حين لا توجد أية ثقافة لا تتطور؛ لأن كل الثقافات تعرف دينامية تتغير وتيرتها باختلاف الأزمنة والأمكنة، كما أن الجهوية تحدّ من إمكانية اعتبار هذا الرصيد الثقافي شعبياً بشكل مطلق بالنسبة لجميع الأقاليم، وهذا ما يدفع إلى الحديث عن نسبة الثقافة الشعبية، أي أنها تبقى شعبية بالنسبة إلى فئة أو عرق أو جهة.

إننا نعيش تحول ما كان بالفعل "ثقافة شعبية" في فترات تاريخية سابقة إلى مجرد رصيد ثقافي تقليدي تحفظه قلة من الناس أو اتخذت مبادرات لتدوين وحفظ جوانب قليلة منه في الأرشيفات؛ ذلك أن هذا التراث كان شعبياً حينما كانت له قنوات ومصادر تعمل على حفظه ونشره من جيل لآخر. كما أن مجرد الحديث عن مفهوم الثقافة الشعبية يحيلنا إلى الحديث عن الهوية عبر ممارسات مجتمع ما، والخصوصية الثقافية؛ لأنها تمثل شخصية الفرد وذاته، والفرد بذاته هو وليد هذه الثقافة التي ساهم في صنعها وساهمت في صنعه كذلك، ففرد بلا ثقافة شعبية ولا تراث، فرد بلا هوية، وبلا تاريخ، ولا

مستقبل، وإن كان يظن أنه يعيش الحاضر، وقد يبدو لكثير من الناس أنها مجرد تفكير ساذج لكنها في الحقيقة هي المعرفة التي تشكّل قاعدة ما وصل الإنسان إليه في حاضرنا من تطوّر وتقدم. وأوّل ما يتبادر إلى الأذهان في إطار الحديث عن مصطلح الثقافة الشعبية هو قضية إعادة إحياءها وإحاطتها بالاهتمام اللازم، وهذا في خضم الصراع مع ثقافة النخبة أو ما يسمى الثقافة العالمية أو الراقية؛ لأنه يُنظر إليها على أنها الثقافة الوضيعة التي ينتجها عامة الشعب، مع العلم أن فئة النخبة أو الصفوة هي التي بدأت تطالب بإعادة الاعتبار للثقافة الشعبية، وأنتجت الكثير من المؤلفات والدراسات التي تدور حول الموضوع، من ذلك كتاب: (تلخيص الإبريز) الذي يقدم قراءات وترجمات تعرّف بعادات وتقاليد الشعوب وأعرافهم، كذلك كتاب (قلائد المفاهير في عادات الأوائل والأواخر).

نحن إذن أمام نوعين من التعبير الثقافي: "تعبير يترجم الوجدان بلغة متنوعة تتراوح بين المستوى الفطري والمستوى المصوغ صياغة جمالية تركيبية على مسافة شاسعة، هي المسافة التي قد تقوم بين المواويل، والأهازيج البالية، وبين النظم الأوكستراالية السيمفونية في الموسيقى أو بين تحريك الجسد على إيقاع ما بطريقة عفوية، وبين الوشم والفن التشكيلي وفن العمارة، وتعبير يترجم الفكر والصياغة المكتوبة للرموز، ويتراوح بين الأدب وبين المعرفة النظرية المفهومية ذات الصياغة العقلانية أو العلمية الصارمة" (الصباغ، 2016، صفحة 9). بذلك نقول أننا أمام نمطين من الثقافة هما: الثقافة الشعبية والثقافة العالمية.

3. مفهوم الثقافة العالمية :

ينحصر تحديد للثقافة فيما يسمى بالثقافة العالمية (la culture savante) أو الثقافة المثقفة (culture cultivée) التي ترمز إلى المعارف العلمية و الفنية و الأدبية للفرد داخل المجتمع وهي من اختصاص النخبة المفكرة (Bonnewitz, 2002, p. 76).

فالثقافة العالمية المجسدة في العلوم والآداب والفنون، تقوم بإنتاجها نخبة مثقفة ومتعلّمة خضعت للتعليم والتدريب المنظم والمنهجي، فهي المنتجة للنظم العلمية والتقنية، ويقتضي تكوين هذه الفئة: "المرور بمدارس و جامعات و أكاديميات متخصصة، والخضوع إلى أشكال من التربية، ومن الضبط و المراقبة المتنوعة، وتفترض الثقافة العليا إذن درجة عالية من الكفاءة والمهارة والتجريد، وهذا ما يضيّق بالضرورة من دائرة الأفراد القادرين على المشاركة فيها، سلباً أو إيجاباً، و النفوذ إليها " (غليون، 1990، صفحة 104). لذلك تحدد الثقافة العالمية نمط المشاركة فيها على أساس احترام قواعد وضوابط أكثر دقة، ممّا يفرض على الراغبين في النفوذ إليها اتباع نوع من التدريب أو التعلم، وهو ما لا يمكن توقّره

بشكل فطري، وعند جميع الناس. فالثقافة العالمية هي ثقافة لا تعني جميع الناس بل تقتصر على فئة أو نخبة مبدعة في المجتمع، أي النخبة المنتجة للأعمال الثقافية من جهة، والمستهلكة لهذه الأعمال من جهة أخرى، ويتطلب الدخول إلى هذه الثقافة، التعلم المسبق لمهارات وتقنيات، ومصطلحات، ونظم، وقواعد ومفاهيم خاصة ودقيقة، وإبراز القدرة على استخدامها، والتحكم فيها؛ و يستدعي هذا إعداداً مسبقاً، و تُحدّد نوعية هذا الإعداد ونجاحه مكانة الفرد في الجماعة الثقافية التي ينتمي إليها.

يصرح الأستاذ الجابري في كتابه: "تكوين العقل العربي"، قائلاً: "إننا قد اخترنا بوعي التعامل مع الثقافة "العالمية" وحدها، فتركنا جانبا الثقافة الشعبية من أمثال وقصص وخرافات وأساطير وغيرها" (الجابري، تكوين العقل العربي (نقد العقل العربي)، 1991، صفحة 7)، ويفسر هذا الاتجاه فيقول: "لأن مشروعنا مشروع نقدي، ولأن موضوعنا هو العقل، ولأن قضيتنا التي نناحز إليها هي العقلانية" (الجابري، تكوين العقل العربي (نقد العقل العربي)، 1991، صفحة 7).

ومع أنه لم يُعرّف الثقافة العالمية أو يحدّد مفهومها صراحة، بيد أننا يمكن أن نستنتج، باختصار نرجو أن لا يكون مغللاً من السياقات الواردة في الكتاب، إنها الحصيلة الفكرية التي تنتجها النخب العالمية أو المثقفة في المجتمع، بما فيها أعمال المفكرين والعلماء والأدباء والفقهاء. ويمكن أن نستنتج من كل ذلك، أن الجابري يرى أن العقل العربي الراهن يمثل هذه الثقافة العالمية المتمثلة في عصر التدوين حصراً، وبذلك لم يترك أي دور للثقافة الشعبية، حتى إذا كانت ترجع إلى جذور عالمية، بدليل أنه استبعدها صراحة حين قال: "فتركنا جانبا الثقافة الشعبية من أمثال وقصص وخرافات وأساطير وغيرها"، بدون أن يضع تحفظاً مفاده أن لهذه الثقافة دوراً في العقل العربي، ويشرح أن أصولها تعود إلى العقل العربي العالم، علماً أننا لا نعتقد أن جميع جذور الثقافة الشعبية تعود إلى الثقافة العالمية، ناهيك عن أن الجزء الذي قد يكون له جذور فيها، أصبح مستقلاً عن أصوله وبعيداً عنها بمرور الزمن، وتطوّر الأحداث والأحوال، ومع ذلك يظلّ دوره فاعلاً.

إننا نعتقد أن الثقافة الشعبية هي أكثر تأثيراً في العقل العربي بوجه عام، من الثقافة العالمية التي أعطاهها الجابري قصب السبق، بل اعتبرها(هو) الوحيدة التي وجهت العقل العربي في ماضيه ووسيطه وحاضره، كما حدد الفترة الزمنية التي أرست هذه الثقافة العربية في العقل العربي، كما يقول هو "عصر التدوين" الذي بدأ في منتصف القرن الثاني للهجرة وامتدّ "نحو قرن أو يزيد" (الجابري، تكوين العقل العربي (نقد العقل العربي)، 1991، صفحة 63).

مما تقدم يبدو أن العقل المجتمعي هو المؤثر الأول -كما نرى- في عقل الأفراد الذين يشكلون ذلك المجتمع (الوحدة المجتمعية)، ولما كان هذا العقل مُحملاً بجميع هذه العناصر: القيم والتقاليد والمعتقدات والخرافات والأساطير والمعارف... إلخ فإننا نرى أن عناصر الثقافة الشعبية تجبُّ في تأثيرها عناصر المعارف الموروثة منذ عصر التدوين، الذي يعتبره الجابري الإطار المرجعي للفكر العربي في مختلف عهوده، أي أننا نرى أن الثقافة الشعبية التي يفرضها العقل المجتمعي على أفراد الوحدة المجتمعية، هي المؤثرة في المقام الأول وليست الثقافة العالمية؛ بل دليل أن الأغلبية الساحقة في المجتمع تسلك وتفكر، وتؤمن وتتصرف لا بموجب الثقافة العالمية، بل بموجب الثقافة الشعبية التي يتكون معظمها من الأعراف والعادات والتقاليد، فضلا عن الخرافات والأساطير، التي تتحوّل إلى قيم، أو مسلمات.

4. بين الثقافة الشعبية والعالمية

لحظة التمايز والتمييز بين الثقافتين العالمية والشعبية شكّلت منعطفا هاما في تاريخ التطور البشري المعاصر، حيث تذهب بعض المراجع أن هذا الاختلاف ارتبط بشكل صريح بقيام الثورة الصناعية، وازدهار المنهج العلمي والعلوم بوجع عام، وهي التي يرجع الفضل إليها في قيام النهضة الاقتصادية المعاصرة؛ مما أكسب الثقافة العالمية مكانة مرموقة في مدرج المعرفة الإنسانية، ولا بأس أن نذكر هنا بأن الممايزة بين الثقافة العالمية والثقافة الشعبية قد سجّل حضوره في الأمم السابقة - إلى حد ما - لكن هذا الحضور لم يكن من الواضح بما يسمح لإقامة تفرقة ترقى إلى مستوى الثنائية والسّجال؛ لأن الثقافة العالمية آنذاك لم تتدعم أسسها بعد، وظلّت جهودا متناثرة هنا وهناك.

في الثقافة الإسلامية نعثر كذلك على تلك الثنائية إنما بمسمّيات أخرى كمعارف العلماء أو علم العلماء وعلم العامة، لكن ذات الملاحظة التي سجلناها سابقا نعيدها هنا، إذ لم تبلغ حالة التجاور بين الثقافتين مستوى التوتّر، حيث تبدوان قانعتان بحالة التجاور، وهي الحالة التي خلقها التسليم من طرف الثقافة الشعبية للثقافة العالمية لاعتبارات دينية بالأساس، إذ العلم آنذاك كان في مجمله ذو طابع ديني، والإسلام كتشريع يأمر ويحضّ على العلم واحترام أهله، زيادة على أن مساحة العلم الدنيوي لم تكن بمثل الاتّساع الذي هو عليه اليوم، أين يتغلغل العلم في أدقّ حيثيات الحياة المعاصرة، لو أخذنا الثقافة بمعنى إعادة إنتاج، وبناء العالم على نحو عام ومختلف، لوجدنا معناه يتّسع إلى آفاق رحبة تشمل أنواعا عدّة، وكانت الثقافة العالمية أو الرسمية أو ثقافة النخبة تشكّل زاوية واحدة فقط، هي زاوية المكتوب، فهناك إلى جانب المكتوب المنطوق والحركي، والثقافة الشعبية تتجلى من خلالها شعرا وأمثالا وحكماً، وسيراً شعبية، وورقاً ونحتاً ونقشاً، وغيرها من أشكال التعبير عن نوازع الذات، وحاجاتها الجمالية وحتى الحيوية كالمأكل والملبس، أو الدينية كالطقوس، العادات والتقاليد والمعتقدات، والتي تفصح عن الذات،

وعن الوجدان الفردي والجماعي، مساحة بهذا الاتّساع هل يمكن تجاوزها والقفز عليها؟ لكن وبالمقابل لماذا تتقلّص هذه المساحة الرّحية من الثقافة الشعبية على المستويين الذهني والواقعي أمام الثقافة الرسمية؟ هناك مجموعة من العوامل لعلّ العوامل البنائية التاريخية تأتي في مقدّمها، فإلى ما قبل الثورة الصناعية كانت الثقافتين الشعبية والرسمية تعيشان حالة من التماهي تقريباً "فقد كانت الثقافة الشعبية هي ثقافة الجماهير العادية التي تمثّل نمواً من أسفل وتعبيراً تلقائياً عن أحاسيسها، شكّلها الشعب بنفسه، وبدون الانتفاع بالثقافة الرفيعة لتناسب احتياجاته (رشوان، 2006، صفحة 98).

لكن بعد ذلك التاريخ صار التمكين للثقافة الرسمية؛ لأنها استطاعت أن تحرّك قاطرة النمو والاقتصاد، وأن تخلق أشكالاً تعبيرية فنية وجمالية وفق أسلوب خاص محكوماً بأطر وقواعد منهجية، وأكثر من ذلك طوّرت أساليب نقدية بتقييم وثمان منتجاتها، وبدت حتى في منتجاتها الرمزية ذات نزعة عقلية، وهذا بالذات هو العامل الثاني، والذي يمكن أن نسميه الفاعلية المنطقية العقلية، وقاد هذا العامل بدوره إلى عامل آخر هو التبيّن الرسمي والأكاديمي؛ ممّا أفضى شرعية رسمية ونفسية، جعلت من الثقافة الشعبية بالمقابل درجة أدنى أو عتبة دنيا، وعزّزت على المستوى الذهني قيام نوع من التدرّجية والتراتبية التصنيفية تحتلّ فيها الثقافة الرسمية القمة، وزاد من تكريس هذا الوضع قيام وسائل الإعلام التي سوّقت المنتج الثقافي الرسمي على حساب الشعبي بالأخص في البدايات الإعلامية. حيث أن هذا السّجال يبدو أكثر وضوحاً في الخارطة الثقافية العربية بسبب خصوصية البناء الاجتماعي والثقافي للمجتمع العربي، حيث ترقى ثنائية ثقافة عامة / ثقافة شعبية إلى مستوى الازدواجية التقاطبية القابلة لتوليد كل أنواع الانقسام والقطيعة. حيث تبدو الثقافة العالمية منهجية مؤسسية مكتوبة بينما الثقافة الشعبية ذات طابع شفهي تلقائي موروث، ولقد كرّس أو ربّما أسّس لحالة القطيعة هذه رواد النهضة العربية الذين كان تركيزهم وأدائهم في نفس الوقت الثقافة العالمية، بل إنهم رأوا في الثقافة الشعبية سبباً من أسباب التخلف الرئيسية لذلك جاءت كل جهودهم تجاه الثقافة العالمية مشيدة بها وداعيةً إليها، وأنتجت تلك النظرة صوراً ذهنية مثبتة تجاه كل ما هو شعبي، فوصف بالأمّي، المتخلف، غير العلمي ... إلخ، في هذا الإطار نجد فريدريك معتوق في مقاله (درب الثقافة الطويل) يعقد مقارنة بين الثقافتين الشعبية والعالمية مبرزاً أهم الفروق والتميزات بينهما: (معتوق، 2011، الصفحات 6-21)

يرى محمد حسن عبد الحافظ أن هناك قراءة خاطئة لطبيعة الثقافة الشعبية بالخصوص، وأنه يجب النظر إليها من زاوية أخرى وفق تجرد موضوعي، فالثقافة الشعبية في رأيه هي تعبير وإدراك مميّز ومختلف للعالم، وبالتالي يجب قول هذا الاختلاف تسليماً بحق الاختلاف، فإذا كانت الثقافة العالمية تدّعي المنهجية، فإن أدبيات ما بعد الحداثة تقدّم جملة كبيرة من المؤاخذات، وتشكّل في هذا المبدأ من الأساس، كما أن تسمية الشفهية والتلقائية لا توقع الثقافة الشعبية في دائرة السطحية واللاعقلانية، واللامنهجية؛

لأنها تعبير دقيق وعميق عن تمثيلات معقدة تنتجها الجماعة (...). ثم إن مساحات الحرية في الثقافة الشعبية كبيرة جداً، إنها أكبر بكثير منها في الثقافة العالمية الرسمية، تتجسّد تلك الحرية من خلال توظيفها ودمجها في الوقت نفسه لمجموعة من الوسائط كالأسطورة والخرافة، وهذان الفضاءان على راحتهما الإبداعية بما يستفزانه من ملكات إبداعية على رأسها الخيال منبوزان تماما من حقل الثقافة العالمية – مع تسجيل استثناء في السنوات الأخيرة التي عرفت بعض الاهتمام بأشكال الثقافة الشعبية، لكنه تناول يبقى يمارس دوماً التعالي والتراتبية – ثم تتجسّد الحرية أيضاً من خلال عدم خضوع الثقافة الشعبية "للرقابة المؤسسية (تصادم مع الرقابة بالتأكيد)، بينما تخضع الثقافة العالمية لرقابة المؤسسة، بل لرقابة الأنا/ الوعي، بينما تفلت الثقافة الشعبية من أية رقابة، بما فيها الرقابة التي يفرضها الأنا / الوعي على اللاشعور/ اللاوعي، على نحو ما يكشف التحليل النفسي الذي يرى "النكت" مجالاً يتحرر فيه اللاوعي من رقابة الوعي، وكثيراً ما نعثر – بجانب النكت – على حكايات وأغانٍ تخترق المحظور في القيم السائدة، سواء على الصعيد الديني أو الجنسي أو السياسي، ومن ثم أنتجت الثقافة الشعبية كمّاً نوعياً من المنتج الثقافي: قصةً ومثلاً ونكتةً وسيرةً... إلخ، للتعبير عن موقف الجماعات من العالم والحياة، إدراكاً أو تفسيراً أو تبريراً أو سخريةً. حسب الموقف والسياق وطبيعة كل نوع ووظيفته، ممّا يجعل من الأنواع الفولكلورية أنواعاً حتمية، لإحداث التوازن والمقاومة، في واقع تاريخي يقع داخل دائرة التسلط، والاختلال الاجتماعي (عبد الحافظ، 2005).

خاتمة:

تطرقنا في هذه الدراسة إلى ذلك التواجه والتقابل بين الثقافتين العالمية والشعبية في ظل الممارسات التراثية، وقد بدا أن تلك الثنائية حاضرة على الدوام في كلّ المجتمعات، وأنها تعرف في بعض الأحيان حالة صراع يتنوع بين الخفي والظاهر.

- الثقافة كائن نامٍ ومتغير، يشتمل على صفة الحياة بكل معانيها، من التباين والتشابه والتداخل والتكامل والتعقيد، ثم إنها فوق ذلك تتنوع وتتشعب، فهي ليست نوعاً واحداً خاضعة في ذلك التنوع لخصائص حاملها بالأساس سواء من النخبة أو العامة.

- يبدو أنه في حالة التعارض الصريح بين الثقافة العالمية، في النص الشرعي مثلاً، وبين موجبات العقل المجتمعي، فنلاحظ أن السيادة تكون للأخيرة.

- إن الثقافة العالمية قلماً تصل إلى عقول العامة، بل تظلّ في الغالب قابضة رهن النصوص المكتوبة، أو أنها تؤثر في عقول نخبة معينة من المثقفين والباحثين، وبعض رجال الدين المنتورين، ومع

ذلك نلاحظ أن كثيرا من هؤلاء الرجال، يغضون الطرف عن بعض العادات والأعراف المخالفة لتعاليم الدين والسائدة في المجتمع.

- تجدر الإشارة في الأخير إلى أن السياقات التطورية لكلا الثقافتين العاملة والشعبية في المجتمع العربي، تبدو مختلفة تماما عن بعضها، فإذا كانت الثقافة الشعبية هي نتاج صيرورة طبيعية لتطوير المجتمع العربي، فإن السياق الذي نشأت وتطورت فيه الثقافة العاملة سياق غير طبيعي بالمرّة، إنها وليدة التدخل الاستعماري الغربي المتعدد الأوجه: العسكري والاقتصادي والثقافي، وبالتالي فإنها لم تكن نتيجة تفكك طبيعي للبنى التقليدية.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن منظور. (بلا تاريخ). *لسان العرب*. القاهرة: دار المعارف.
- أبو خلدون ساطع الحصري. (1985). *آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة* (المجلد ط 2). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- أحمد بن نعمان. (1996). *هندي هي الثقافة*. الجزائر: دار الأمة.
- أحمد زكي البدوي. (1982). *معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية الثقافة إنجليزي-فرنسي-عربي*. بيروت: مكتبة لبنان.
- أحمد علي مرسي. (2013). *صون التراث الثقافي غير المادي، أرشيف الحياة والمأثورات الشعبية، مصر نموذجاً*. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- الزيدي المرتضى. (1994). *تاج العروس من جواهر القاموس* (المجلد 6). القاهرة، مصر: دار المعلمين.
- برهان غليون. (1990). *اغتيال العقل*. الجزائر: موقف للنشر.
- حسين رشوان. (2006). *الثقافة (دراسة في علم الاجتماع لثقافي)*. الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
- دوني كوش. (2002). *مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية*. (قاسم المقداد، المترجمون) دمشق: منشورات إتحاد الكتاب العرب.
- زكي الميلاد. (ربيع، 2005). *الثقافة والمجتمع، نظريات وأبعاد*. مجلة الكلمة تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث (47). تم الاسترداد من <http://kalema.net/home/article/view/596>
- صالح ذياب هندي. (1985). *دراسات في الثقافة الإسلامية*. دمشق، سوريا.
- عبد الحميد الحواس. (2002). *أوراق الثقافة الشعبية* (المجلد ط 1). القاهرة: دار الأمين للنشر والتوزيع.
- عبد المنعم عبد العزيز المليجي. (2019). *أساليب التفكير*. القاهرة: وكالة الصحافة العربية: ناشرون،.
- غياث بوفلجة. (2005). *تحولات ثقافية*. الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع.
- فردريك معتوق. (نوفمبر، 2011). من المعارف الشعبية والعامية إلى المعارف العلمية والخاصة، درب الثقافة الطويل. *مجلة العربي* (636)، الصفحات 6-21.

كليفورد غيرتز. (2009). *تأويل الثقافات* (المجلد ط1). (محمد بدوي، المترجمون) بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

محمد أحمد بيومي . (2002). *علم الاجتماع الثقافي*. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

محمد حسن عبد الحافظ. (25 مارس، 2005). *الثقافة الشعبية والمجتمع المدني: نحو مدخل فولكلوري للتنمية*. تاريخ الاسترداد 23 نوفمبر، 2021، من الحوار المتمدن (عدد 1147):

<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=34156>

محمد عابد الجابري. (1991). *تكوين العقل العربي (نقد العقل العربي)* (المجلد ط5). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

محمد عابد الجابري. (1999). *المسألة الثقافية في الوطن العربي* (المجلد ط2). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

مرسي الصباغ. (2016). *دراسات في الثقافة الشعبية*. القاهرة.

Bonnewitz, P. (2002). *Premières leçons sur la sociologie de P. Bourdieu*. Paris: Presses universitaires de France.

Etienne, J., Bloess, F., Noreck, J.-P., & Roux, J.-P. (1997). *dictionnaire de sociologie: les notions les mécanismes les auteurs*. Paris: Hatier (Initial.sociologie-politique).

Thompson, J. (1990). *Ideology and Modern Culture: critical social theory in the era of mass communication*. Stanford: Stanford University Press.